بسم الله الرحمن الرحيم

٧٠ — سورة المعارج

وتسمى سورة « سَأَلَ سَآئِلُ » . وهى مكية . وآيها أربع وأربعون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١] (سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ)

[٢] (لِّلْكَـٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ)

[٣] (مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ)

« سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِّلْكَـٰفِرِينَ » قال مجاهد: أى دعا داعٍ بعذاب يقع فى الآخرة، وهو قولهم(١) (ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) . والسائل هو النضر بن الحارث بن كلدة ـ فيما رواه النسائىّ عن ابن عباس ـ وقد قيل: إن الموعود بوقوعه عذاب الدنيا . وقد قتل النضر ببدر، ففى الآية إخبار عن مغيب وقع مصداقه . و (لِّلْكَـٰفِرِينَ) صفة ثانية لـ (عذاب) ، أو صلة لـ (واقع) . واللام للتعليل، أو بمعنى (على) . « لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ * مِّنَ ٱللَّهِ » أى رادّ يرده من جهته، لتعلق إرادته به . وهذا كقوله تعالى(٢) (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ) .

وقوله تعالى « ذِى ٱلْمَعَارِجِ » قال الرازىّ : المعارج جمع معرج ، وهو المصعد . ومنه قوله تعالى(٣) (وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ) .

والمفسرون ذكروا فيه وجوهاً :

أحدها ـ قال ابن عباس فى رواية : أى ذى السموات . وسماها معارج لأن الملائكة يعرجون فيها .

(١) [٨ / الأنفال / ٣٢] . (٢) [٢٢ / الحج / ٤٧] .
(٣) [٤٣ / الزخرف / ٣٣] .

وثانيها ـ قال قتادة : ذى الفواضل والنعم . وذلك لأن لأياديه ووجوده إنعامه مراتب، وهى تصل إلى الناس على مراتب مختلفة .

وثالثها ـ أن المعارج هى الدرجات التى يعطيها أولياءه فى الجنة . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ)

« تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ »

قال ابن جرير[١] : أى تصعد الملائكة والروح ، وهو جبريل ، إليه عز وجل ، فى يوم كان مقدار صعودهم ذلك ، فى يوم لغيرهم من الخلق ، خمسين ألف سنة . وذلك أنها تصعد من منتهى أسفل الأرض ، إلى منتهى أمره من فوق السموات السبع .

وقيل : بل معناه تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم يفرغ فيه من القضاء بين خلقه ، كان قدر ذلك اليوم الذى فرغ فيه من القضاء بينهم قدر خمسين ألف سنة .

وقد قيل : إن (فى يوم) متعلق بـ (واقع) . والمراد به يوم القيامة .

فعن ابن عباس : هو يوم القيامة ، جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة . والمقدار المذكور إما حقيقىّ ، أو مجاز عن الاستطالة .

قال الشهاب : وهكذا زمان كل شدة ، كما قيل :

تمتعْ بأيام السرورِ ، فإنها قِصارٌ ، وأيامُ الغمُومِ طوَالُ

ونقل الرازىّ عن أبى مسلم أن هذا اليوم هو يوم الدنيا كلها ، من أول ماخلق الله إلى آخر الفناء . فبين تعالى أنه لابدّ فى يوم الدنيا من عروج الملائكة ونزولهم ، وهذا اليوم مقدر بخمسين ألف سنة . ثم لايلزم على هذا أن يصير وقت القيامة معلوما ، لأنا لا ندرى كم مضى وكم بقى . انتهى . وهو بعيد ، وهذه الآية كآية[٢] (يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ

(١) انظر الصفحة رقم ٧٠ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) [٣٢ / السجدة / ٥] .

ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ) ولا منافاة فى التقدير ، لأن المعنىّ به الاستطالة ، لشدته على الكفار ، أو لكثرة مافيه من الحالات والمحاسبات . والقرآن يفسر بعضه بعضاً ـ والله أعلم ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا)

[٦] (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا)

[٧] (وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا)

[٨] (يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ)

[٩] (وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ)

[١٠] (وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا)

[١١] (يُبَصَّرُونَهُمْ ، يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ)

[١٢] (وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ)

[١٣] (وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ)

[١٤] (وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ)

« فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا » أى: على مايقولون. ولا يضق صدرك ، فقدقرب الانتقام منهم. « إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ » أى : العذاب الدنيوىّ أو الأخروىّ « بَعِيدًا » أى: وقوعه، لعدم إيمانهم بوعيده تعالى . « وَنَرَىٰهُ قَرِيباً » أى قريب الحضور . « يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ » أى كالشيء المذاب، أو دردىّ الزيت. و(يوم) إما ظرف لـ(قريبا) ، أو لمحذوف .

« وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ » أى : كالصوف .
« وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا » أى قريب قريباً عن شأنه ، لشغله بشأن نفسه .
« يُبَصَّرُونَهُمْ » أى يعرّفون أقرباءهم ، ومع ذلك يفر بعضهم من بعض . وفيه تنبيه على أن المانع من هذا السؤال هو الاندهاش مما نزل ، لا احتجاب بعضهم من بعض .
« يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ » أى يتمنى الكافر « لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ » أى الذين هم محل شفقته .
« وَصَٰحِبَتِهِۦ » أى التى هى أحب إليه « وَأَخِيهِ » أى الذى يستعين به فى النوائب .
« وَفَصِيلَتِهِ » أى عشيرته « ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ » أى تضمه إليها عند الشدائد .
« وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ » أى الافتداء . أو المذكور . أو من فى الأرض. عطف على (يفتدى) . و (ثم) للاستبعاد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ)
[١٦] (نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ)
[١٧] (تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ)
[١٨] (وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ)

« كَلَّآ » أى لا يكون ذلك « إِنَّهَا » أى النار الموعود بها المجرم « لَظَىٰ » أى لهب خالص . « نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ » أى الأطراف ، كاليد والرجل . أو جمع (شواة) وهى جلدة الرأس . « تَدْعُوا۟ » أى إلى صليّها « مَنْ أَدْبَرَ » أى عن الحق « وَتَوَلَّىٰ » أى عن الطاعة. « وَجَمَعَ » أى المال « فَأَوْعَىٰٓ » أى جعله فى وعاء وكنزه ، ومنع حق الله منه ، فلم يزكّ، ولم ينفق فيما أوجب الله عليه إنفاقه فيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا)

[٢٠] (إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا)

[٢١] (وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا)

« إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا » أى قليل الصبر ، شديد الحرص ، كما بيّنه بقوله : « إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ » أى الضرّ والبلاء « جَزُوعًا » أى كثير الجزع من قلة صبره . « وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ » أى كثر ماله ، وناله الغنى «مَنُوعًا» أى لما فى يده ، بخيل به ، لشدة حرصه.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ)

[٢٣] (ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ)

[٢٤] (وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ)

[٢٥] (لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ)

[٢٦] وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ)

[٢٧] (وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ)

[٢٨] (إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ)

[٢٩] (وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ)

[٣٠] (إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ)

[٣١] (فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ)

[٣٢] (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)

[٣٣] (وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ)

[٣٤] (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)

[٣٥] (أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ)

« إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ » أى مقيمون ، لا يضيّعون منها شيئاً . « وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ » أى المتعفّف الذى أدبرت عنه الدنيا ، فلا يسأل الناس . وقيل : الذى لا ينمى له مال . وقيل : المصاب ثمره ، أخذاً من قول أصحاب الجنة فى السورة قبل[1] (بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ) . واللفظ أعمّ من ذلك كله .

وقد روى ابن جرير عن ابن عمر أنه سئل عن الحق المعلوم أهو الزكاة ؟ فقال : إن عليك حقوقا سوى ذلك .

ومثله عن ابن عباس قال : هو سوى الصدقة ، يصل بها رَحِماً ، أو يقرى بها ضيفاً ، أو يحمل بها كَلّاً ، أو يعين بها محروماً .

وعن الشعبيّ : أن فى المال حقًّا سوى الزكاة .

« وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ » أى الجزاء . « وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ » قال ابن جرير[2] : أى وَجِلون أن يعذبهم فى الآخرة ، فهم من خشية ذلك لا يضيّعون له فرضاً ، ولا يتعدّون له حدًّا . « إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ » أى أن ينال من عصاه ، وخالف أمره . « وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ » أى لغلبة ملكة الصبر ،

(١) [٦٨ / القلم / ٢٧] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٨٣ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

وامتلاك ناصيته . « إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ » قال ابن جرير[١] : أى التمس لفرجه منكحاً سوى زوجته ، أو ملك يمينه . . « فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ » أى الذين عدوا ما أحل الله لهم، إلى ما حرّمه عليهم. «وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ » قال ابن جرير[١]: أى لأمانات الله التى ائتمنهم عليها من فرائضه ، وأمانات عباده التى ائتمنوا عليها ، وعهوده التى أخذها عليهم بطاعته فيما أمرهم به ونهاهم ، وعهود عباده التى أعطاهم ، على ما عقده لهم على نفسه راعون ، يرقبون ذلك ويحفظونه فلا يضيّعونه . «وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ» أى لا يكتمون ما استشهدوا عليه ، ولـكنهم يقومون بأدائها حيث يلزمهم أداؤها ، غير مغيّرة ولا مبدّلة . « وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ » أى لا يضيعّون لها ميقاتاً ولا حدًّا . قيل: الحفظ عن الضياع، استعير للإتمام والتـكميل للأركان والهيئات. ولذا قال القاضي: وتـكرير ذكر الصلاة ووصفهم بها أولًا وآخرًا ، باعتبارين : للدلالة على فضلها ، وإنافتها على غيرها . « أُوْلَـٰٓئِكَ فِى جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ » أى بثواب الله تعالى ، لاتصافهم بمكارم الأخلاق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ)

[٣٧] (عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ)

[٣٨] (أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِىٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ)

[٣٩] (كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ)

«فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ» أى مسرعين للحضور، ليظفروا بما يتخذونه هزؤاً .

وعن ابن زيد : (المهطع) الذى لا يطرف .

(١) انظر الصفحة رقم ٨٤ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

« عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ » أى متفرقين حلقاً ومجالس ، جماعة جماعة ، معرضين عنك ، وعن كتاب الله . « أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ » أى ولم يتّصف بصفات أهلها المنوّه بها قبل . « كَلَّآ » أى لا يكون ذلك ، لأنه طمع فى غير مطمع . « إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ » أى من النطف . يعنى : ومن قدر على ذلك ، فلا يعجزه إهلاكهم ، فليحذروا عاقبة البغى والفساد . ولذا قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَـٰرِقِ وَٱلْمَغَـٰرِبِ إِنَّا لَقَـٰدِرُونَ)

[٤١] (عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ)

[٤٢] (فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ)

[٤٣] (يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ)

[٤٤] (خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ، ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ)

« فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَـٰرِقِ وَٱلْمَغَـٰرِبِ » يعنى مشرق كل يوم من السنة ومغربه ، أو مشرق كل كوكب ومغربه ، أو الأقطار التى تشرق فيها الشمس وتغرب . « إِنَّا لَقَـٰدِرُونَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ » أى بمغلوبين ، إن أردنا ذلك . « فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ » أى أخذهم فيه وهلاكهم . « يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ » أى يسرعون . و (النصب) الصنم المنصوب للعبادة ، أو العلم المنصوب على الطريق ليهتدى به السالك ، أو ما ينصب علامة لنزول الملك وسيره . فهم يسرعون إسراع عبدة الأصنام نحو صنمهم ، أو إسراع من ضل عن الطريق إلى أعلامها . أو إسراع الجنـد إلى راية الأمير . « خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ » أى من الخزى والهوان . « تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ » أى تغشاهم ذلة من هول ماحاق بهم . « ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ » أى بأنهم ملاقوه .